



إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

يوليو ٢٠٢١ م

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات

الصمت المقدس

"فوق كل شيء أحبب الصمت". يعلمنا القديس اسحق السرياني قائلاً: "أحبب الصمت يا أخي لأن لك فيه حياة لنفسك. في الصمت ترى نفسك. خارج الصمت لا ترى سوى ما هو خارج عن نفسك. فمقدار ما ترى الآخرين لن ترى نفسك قط. الفم الصامت يترجم أسرار الله. لقد أُخبرت أن ثيوفيلوس رئيس الأساقفة ذهب إلى البرية ليرى الأنبا بامبو، لكن الأنبا بامبو لم يتحدث معه. أخيراً قال الإخوة للأنبا بامبو: "يا أبانا قل شيئاً لرئيس الأساقفة حتى ينتفع" فأجاب: "إن لم ينتفع من صمتي فلن ينتفع من كلامي". حقاً، لا يوجد سوى القليل الذي ينبغي قوله. لو لم ينتفع الناس من صمتنا فلن ينتفعوا من كلامنا. لقد أكد آباء البرية على أهمية الصمت، والسكون، وتجنب الحديث البطال خصوصاً بالنسبة لنا نحن الرهبان والراهبات. "سكت لسانك فيتكلم قلبك، وسكت قلبك فيتكلم الله". يعلمنا الآباء أننا ننمو في الحياة الروحية في الصمت مثلما ينمو الجنين في رحم الأم في صمت. هكذا نحن أيضاً ننمو في حياتنا الروحية في رحم الرهبة في صمت، وسكون، وتجنب الحديث البطال.

يعلمنا الآباء أن نغضب أنفسنا على الصمت الذي هو أم كل الفضائل. فلتبقي صامتاً لكي تردد الصلاة. لأنه عندما يتحدث المرء، كيف يمكنه أن يتجنب الحديث البطال الذي يتولد عنه كل كلمة شريرة تثقل النفس بالملامة؟ اهرب من الحديث أثناء عملك، تكلم فقط باعتدال عند الضرورة. دع اليدين تعملان من أجل احتياج الجسد، والعقل يردد اسم يسوع الحلو بحيث يتم إشباع احتياج النفس أيضاً والذي لا ينبغي أن ننساه ولو للحظة. جاهد في صمت، وصلاة، ونحيب فتجد عناصر الحياة الأبدية. اغضب نفسك. اغلق فمك في كل من الفرح والحزن. هذه هي علامة على الخبرة بحيث يتم حفظ الحالتين. لأن الفم لا يعرف كيف يحفظ الكنوز. الصمت هو أعظم الفضائل وأكثرها ثمراً. هذا هو السبب الذي جعل الآباء المتحدين بالله يسمونه النقاوة. كما قال الأنبا أرسانيوس مرة: "كثيراً ما تكلمت فندمت أما عن الصمت فلم أندم قط". وعندما صلى قائلاً: "يا رب قدني في طريق الخلاص" سمع صوتاً يقول له: "يا أرسانيوس إهرب، واصمت، وصلي بلا إنقطاع لأن تلك هي مصادر النقاوة". الصمت والسكون هما نفس الشيء. أول ثمرة إلهية للصمت هي النوح أي الحزن المقدس أو الحزن المفرح. بعد

ذلك تأتي الأفكار المنيرة التي تجلب الفيض المقدس لينابيع الدموع الحية، والتي من خلالها تحجث المعمودية الثانية التي بها تتطهر النفس، وتضيء، وتتشبه بالملائكة.

كيف يمكن لأعين الدهن أن تنفتح وترى يسوع بحلاوة أعظم من العسل؟! يا للمعجزة الجديدة التي تحدث من الصمت القانوني ويا للعقل المنتبه! لا تتحدث بكلام غير ضروري لأنها تبرد غيرة نفسك الإلهية. أحبب الصمت الذي منه تولد كل الفضائل والأسوار داخل النفس بحيث لا يقترب منها شر الشيطان. "السقوط من ارتفاع أفضل ممن السقوط باللسان". يتسبب اللسان في أعظم ضرر للإنسان. لا نحصل على الخلاص عندم نكلم كلام بطل أو عندما نقضي أيامنا من دون حساب. احترس من لسانك وأفكارك، لأن حفظهم يملأ النفس من نور الله. أما الذي لا يلجم لسانه فإنه يخزن العديد من الخطايا داخل نفسه. اهرب من الأحاديث البطالة والضحك إن أردت أن تكون صلاتك بدالة من خلال الدموع والنعمة! ردد الصلاة باستمرار بشدة وغيره واشتياق. عندئذ فقط يصبح المرء قوي النفس. تجنب الأحاديث البطالة بأي ثمن لأنها تضعف النفس فلا يصبح لديها قوة للجهاد. هذا ليس وقت أحلام اليقظة، لكنه زمن النفع الروحي. من ذا الذي يضمن أنه بعد أن يذهب للنوم سوف يستيقظ؟ بالتالي، دعونا نغصب أنفسنا. عندما يبقى المرء صامتاً، يحصل على الوقت والحرية للصلاة والتركيز، ولكنه عندما يقضي ساعاته بعدم اكتراث فإنه لا يجد الوقت للصلاة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه من خلال حديثه البطل يجمع لنفسه العديد من الخطايا. من أجل هذا وضع الآباء فضيلة الصمت على رأس الفضائل، لأن بدونه لا تستطيع اية فضيلة أن تبقى داخل نفس المرء. كن حذراً في كلامك باستمرار، أي فكر أولاً ثم تكلم. لا تدع لسانك يسبقك قبل أن تفكر فيما ينبغي عليك قوله. لا تتحدث بدالة كبيرة فكثيرة هي الشرور التي تتولد عن هذه الدالة الشريرة. اهرب منها كما تهرب من الحية الحارقة! احفظ نفسك من الدالة في الكلام ومن الكلمات التي في غير وقتها لأنها تجفف نفس الإنسان. على الجانب الآخر، فإن الصمت، والوداعة، والصلاة تملأ النفس بندى سماوي، وبنوح مملوء حلاوة. احتقر الحديث البطل لأنه أم للبرودة والجفاف، حيث أن الحديث البطل يجفف الدموع من عينيك، أي أنه يأخذها منا فتدبل نفوسنا. دعونا نفتني الصبر، والتواضع، والمحبة، ونحفظ لساننا لأنه عندما يهزم الإنسان فإنه يصبح بالنسبة له شراً جامحاً يجرف الآخرين بعيداً ويطرحهم في هاوية الخطية.

لقد رأى الديرس يوحنا الدرجي مرة بعض الرهبان يتحدثون بشر على راهب آخر، وعندما وبخهم أجابوه أنهم كانوا قلقين عليه وأنهم كانوا يبحثون كيف يساعدونه، فوبخهم أكثر قائلاً إن أردتم مساعدته فلتصلوا من أجله بدلاً من النوم عليه. ألا نعلم أننا نتحدث بشر ونميمة على بعضنا البعض أننا نحرك الشيطان لكي يتسبب في أذى أكبر لذلك الإنسان حتى نستمر في الحديث والنميمة عليه بشر أكبر وهكذا نفقد كلانا خلاص أنفسنا، ولكن على الجانب الآخر عندما نصلي من أجل ذلك الشخص ونعامله بلطف فإن الله يساعدنا ونمنع الشرير من الاستمرار في إيذائه. يعلمنا ابن سيراخ قائلاً: "إذا

نفخت في شرارة اضطرمت، وإذا تفلت عليها انطفأت، وكلاهما من فمك" (سي ٢٨:١٤). النميمة هي شر عظيم. مثلما تقود الدفة الصغيرة السفينة بأكملها إلى وجهتها، هكذا اللسان يقود المرء إما إلى الخير أو الشر. يشجب الآباء القديسون بشدة إدانة خطايا الآخرين، أو أخطائهم، أو عاداتهم الشريرة. عندما نحكم على أخينا، فإننا نحكم على أنفسنا بخطية عظيمة. ولكننا عندما نستتر على أخينا، فإن الله سوف يحميننا أيضاً من خطايا عظيمة. عندما نفصح أخانا، فإننا ندفع نعمة الله بعيداً عنا وهو يسمح أن نسقط في نفس الخطايا حتى نتعلم أننا جميعنا ضعفاء وأن نعمة الله تسندنا. من يحفظ لسانه يحفظ نفسه من خطايا عظيمة وسقطات رهيبه. السبب الرئيسي للنقد والنيمة هو الكبرياء والذات لأن المرء يعتبر نفسه أفضل من الآخرين. من أجل ذلك يكون من المفيد جداً بالنسبة للمرء أن يفكر في نفسه أنه أقل من كل أحد بحيث يعتبر أخاه أحسن منه وبالتالي يخلص من هذا الشر بمعونة الرب. لو دفعك شيء ما للنقد في أية مسألة تخص أخ أو تخص الدير، فبدلاً من ذلك حاول أن تصلي من أجل تلك المسألة دون أن تخضعها لحكم عقلك. لو ادخلت داخل نفسك بواسطة الصلاة، والتواضع، والنوح فإنك سوف تجد كنزاً روحياً. فقط ابعد الكبرياء والذات بعيداً عنك.

إننا نحفظ أفواهنا بحيث تبقى قلوبنا نقية. وعندما تبقى نقية، فإن الله يأتي ويسكن فيها، وعندئذ تصبح هيكلًا لله. تفرح الملائكة المقدسة بوجودها داخل هذا القلب! أيضاً، ابعد عنك الأفكار الدنسة بواسطة الصلاة. فالصلاة هي نار تحرق وتطرد الشياطين. احترس من فمك، ولكن بالأكثر من عقلك؛ لا تدع الفكر الشريرة تبدأ في الحديث معك. لا تدع لسانك يقول كلمات قد تجرح أخاك. دع لسانك يخرج كلمات عطرة: كلمات تعزية، وتشجيع، ورجاء. إنه فم الإنسان الذي يكشف داخله، أي إنسانه الداخلي: "الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصالح والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر. فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم" (لو ٦: ٤٥). جاهد بقدر طاقتك أن تغصب نفسك في كل شيء وخصوصاً في الصمت ودموع النوح. عندما يُمارس الصمت بمعرفة ويُحفظ بدموع، فإن حجر أساس الرهينة يكون قد أرسى وعليه سوف يبني البيت بأمان الذي سوف تجد فيه النفس الحرارة الروحية والتعزية. إنها علامة سيئة بالنسبة لمستقبل النفس لو لم يُحفظ الصمت، طالما أن الشخص غير الصامت يبدد أي شيء يجمعه. لأن الراهب الذي يطلق العنان لفمه سوف يكون مرتبكاً في كل شيء. عندما تبقى صامتين، فغننا نجد الوقت للصلاة الداخلية التي تجلب ثقة كاملة، ونجد الوقت للأفكار المستنيرة التي تملأ الذهن والقلب بالنور. بالتالي، اغصب نفسك في كل شيء، لأن البداية الجيدة محمودة، ولكن البداية المهملة مشجوبة لأن نهايتها هي الأكثر ندماً. لدينا العديد من الأشياء التي يقدمها لنا الشيطان، والعالم، وتوانينا لكي نتحدث عنها باطلاً، فيوجد العديد من الأحداث والقصص التي تحدث وسوف تحدث بحيث يكون لدينا الكثير لننشغل به، بينما وضعنا جانباً "الشيء الوحيد المطلوب" أي الالتصاق بالله بواسطة الصلاة. إن احتياجنا للعودة لله ملح جداً لدرجة أنه لا ينبغي أن

يشغلنا أي شيء آخر بخلاف كيفية الالتصاق بالله بواسطة الصلاة والأفكار المقدسة التي تساعدنا أيضاً على تحقيق هذا الهدف. من خلال مثل هذا الصمت خرج الأنبياء العظماء: موسى من الصحراء، وعاموس من جانب التل، وبولس من العربية، ويوحنا المعمدان من البرية، والأنبا أنطونيوس من الصحراء، وربنا يسوع من الاعتزال في الناصرة ومن الأربعين يوماً وليلة من البرية. لقد وجد إيليا أن الرب لم يكن في الريح، ولا في الزلزلة، ولا في النار، ولكن في الصوت الصغير الهادئ. لقد تحدث إليه الله في الصمت. لقد تعلم أشعياء أنه " في الهدوء والسكينة" مصادر القوة. يتفق قديسو ورهبان كل عصر على الشهادة على أن الصمت هو شرط رئيسي للمعرفة الروحية بدونه لا نستطيع تسمية نفوسنا أنها ملك لنا، وأن "الإنسان لا يرى نفسه في الماء الجاري بل في الماء الساكن"، وأن الحقائق الروحية لا تزرق أو تصيح ولكن الله ينتظر في أعماق كياننا لكي يتحدث معنا لو اننا فقط "غسلنا نفوسنا بالصمت". يكتب القديس يوحنا الدرجي قائلاً: "الصمت هو أم الصلاة، إنه صعود مستمر للسماء".

أه لو كنا نجتمع معاً مثل الآباء القديسين من أجل البنين الروحي والتعليم المتبادل، فغنا لم نكن نتحدث عن أمور عقيمة ومسائل لا تخصنا، ولكن كنا نتحدث فقط عن كيف يعمل كل واحد منا على خلاص نفسه، وعن أي قانون للقلبية يجب اقتناؤه، وعن كيفية ممارسته، وأي جهاد ينبغي علينا أن نجاهد فيه. هكذا، كنا سنبي ونقدم بعضنا البعض على الطريق، مقدمين يد المعونة لبعضنا البعض، وكانت كلمات الحكيم سليمان لتتحقق فينا: "الأخ أمتع من مدينة حصينة" (أم ١٨: ١٩). كان اجتماعنا سيكون مثل اجتماع الملائكة الذين، على الرغم من عددهم الكبير، لديهم إرادة واحدة مقدسة مشتركة يسعون إليها وهي كيفية إتمام مشيئة الخالق.

آبائي الأعمام المحبوبين، لا تسمى رهبنتنا طقس الملائكة باطلاً! من المؤكد أن كل واحد منا أتى إلى الدير المقدس في اسم الرب لديه نفس الإرادة الواحدة، ونفس الجهاد الذي نشترك فيه جميعنا وهو كيف نرضي الرب (١ كو ٣: ٧). ليس لدينا أغلال أرضية تربطنا بالعالم، لا هموم ولا اهتمامات عالمية تلتف حول أجنحتنا وتمنعنا من الطيران إلى عريتنا السماوي! إننا أحرار مثل طيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، بل أبونا السماوي يقوتنا (مت ٦: ٢٦). دعونا إذاً نتذكر دعوتنا الملائكية، ونسلك كما يليق في الدعوة التي دعينا إليها بكل تواضع ووداعة، وطول أناة، محتملين بعضنا البعض في المحبة، مجتهدين أن نحفظ وحدانية الروح برباط السلام (أف ٤: ١-٣) كما يعلمنا الروح القدس.